

التفسير المطول - سورة الحجر 015 - الدرس 9-7 : تفسير الآيات 72 - 84 ،  
عمر الإنسان .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ : 26-12-1986

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ،  
اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا  
وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من  
يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

### حجم الإنسان عند ربه بحجم عمله الصالح :

أيها الإخوة المؤمنون ؛ مع الدرس السابع من سورة الحجر .  
وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ  
يَسْتَبِشِرُونَ (67) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (68) وَأَتَّلُوا اللَّهَ وَلَا ثُخُزُونِ (69) قَالُوا أَوْلَمْ  
تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَأَعْلَمْ (71) ﴾ ف جاء قول الله عز وجل :  
لَعْمَرْكَ إِنَّهُمْ لِفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .. هذا كلام معرض بين آيتين ، أي في سياق القصة قال  
الله عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم مقدماً بعمره الثمين : ﴿ لَعْمَرْكَ إِنَّهُمْ لِفِي  
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .. ف هذا العمر الذي يعيشها الإنسان ؛ ستون عاماً ، سبعون عاماً ، ثلاثون  
عاماً ، أربعون عاماً ، خمسة وأربعون عاماً ، هذا العمر الذي كتبه الله لهذا الإنسان كيف  
يمضيه ؟

الأنبياء أمضوا هذا العمر في هداية البشرية ، في نقلهم من الضلال إلى الهدى ،  
من الشقاء إلى السعادة ، في تخلصهم من عقائد الوثنية ، من ضلالات الشرك ، من وحول  
الشهوات ، من ترهات الأباطيل ، من الخرافات ، من الخزعبلات ، وهناك أشخاص هتلر مثلاً  
عاش عمراً ، وانتهى هذا العمر ، وترك خمسين مليون قتيلاً في الحرب العالمية الثانية ، إذا كان  
لكل قتيل أقرباء يزيدون على خمسة فمئتان وخمسون مليوناً من البشر قد أطعفهم ، هذا عمر ، ١

والنبي عليه الصلاة والسلام بهذه السنوات الثلاثة والستين التي عاشهها أنقذ الناس من الظلمات إلى النور ، من الضلال إلى الهدى ، من الانحراف إلى الاستقامة ، من الشقاء إلى السعادة ، لذلك استحق أن يقسم الله رب السماوات والأرض بعمره الثمين .

وهذا الكلام لنا علاقة به ، هذا العمر الذي أحياه كيف أمضيه ؟ ما الموضوعات الكبرى التي تستغرقه ؟ كسب المال ؟ تأمين الحاجات ؟ الرفعة بين الناس أم لك في الحياة رسالة تؤديها ؟ ما رسالتك ؟ ما الذي يعنيك في الحياة ؟ هناك أناس لا تزيد اهتماماتهم عن تأمين حاجاتهم ، لذلك أحد الشعراء في عهد سيدنا عمر قال بيته من الشعر فأدبه عمر رضي الله عنه وجعله يدخل السجن ، قال لأحد الأشخاص :

وأعد فإنك أنت الطاعم الكاسي دع المكارم لا ترحل لبغيتها

\*\*\*

من كان اهتمامه لا يزيد عن تأمين الطعام والشراب ، وتأمين حاجاته ، والخلود إلى الراحة والزينة وما إلى ذلك ، هذا العمر فارغ ، عش ستين أو سبعين أو ثمانين أو تسعين أو مئتين ، هذه السنوات كلها لا تعني شيئاً ، إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفاسفها ودنيها ، أسأل نفسك يا أخي هذا السؤال : أنا ماذا فعلت ؟ سؤال حرج ، ماذا فعلت ؟ حجمك عند الله بحجم عملك ، ما العمل الذي تستطيع أن تلقى الله به ؟ ما العمل الذي تستطيع أن تعرضه على الله عز وجل ؟ ماذا فعلت ؟

لا أنسى مرة حينما حضرت فيها جنازة ، وقام أحد العلماء ليؤبين الميت فقال : فلان مؤذن ، ما تمكن أن يضيف كلمة واحدة ، مع أنني أعرف فلاناً رحمة الله ، كانت حياته مرفهة ، وكان دخله كبيراً ، وكان يحب أهل العلم ، وكان ، لكن ماذا فعل ؟ هل هدى واحداً ؟ هل أندى إنساناً ؟ هل خلف علماء ؟ هل خلف ولداً صالحًا ينتفع الناس به يدعوه له ؟ هل ترك صدقة جارية ؟ سؤال ؛ هذا العمر لفت نظري في هذه الآية كلمة العمر (لعمرك ) ، الله سبحانه وتعالى في عليائه يقسم بعمر هذا النبي الثمين ﴿لَعْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرِتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أردت أن أفصل هذه الكلمة ، هناك عمر تافه ، من عمله إلى بيته ، يجمع المال ، وينفقه على عياله وانتهى ، من دون توجيه ، من دون تربية ، من دون تأدية رسالة ، من دون عمل صالح ، أي دينه الدرهم والدينار ، وهذا دينه الشهوات ، وهذا دينه النفع في الأرض ، وما إلى ذلك ، لذلك هذا الشخص الذي لا يفعل خيراً لا يساوي عند الله شيئاً ، لا تعجب بهؤلاء الفارغين لا بأموالهم ،

ولا بآولادهم ، ولا ببيوتهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا ، ولكن اعجب من الذي أمضى حياته في طاعة الله ، وفي هداية الخلق ، وفي التقرب إلى الحق .

النبي عليه الصلاة والسلام عاش هذا العمر ، ما من كلمة نطق بها ، ما من تصرف ، ما من سكوت ، سكوته تشريع اللهم صل عليه .

عرف علماء الحديث الشريف بأنه أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وإقراره ، لو أنه نظر إلى صاحب يفعل شيئاً وسكت فسكوته تشريع ، لأنه إذا سكت معنى ذلك أنه أقره على هذا العمل .

امرأة من خلف الستار كانت تخاطب زوجها المتوفى في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ..

فَعَنْ أُمِّ الْعَلَاءِ امْرَأَةٌ مِّنْ الْأَنْصَارِ بَأَيَّتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ افْتَشَمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا فَوَجَعَ وَجَعَهُ الَّذِي ثُوَّقَ فِيهِ ، فَلَمَّا ثُوَّقَ ، وَغُسِّلَ ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ - هَذَا الْكَلَامُ يَخَالِفُ آدَابَ التَّوْحِيدِ - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ : بِأَبِي أَنْثَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ ، وَاللَّهُ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي ؟ قَالَتْ : فَوَاللَّهِ لَا أَرْكَي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا .

صحيف البخاري

ما سكت ، لو سكت لكان قولها صحيحاً . إذاً هذا النبي الكريم أقواله ، أفعاله ، سكوته ، تصرفاته ، كلها كانت تشريعاً ، جاء إلى الحياة وغادرها وما أخذ منها شيئاً ، الدنيا دار من لا دار له ، ولها يسعى من لا عقل له . عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ .

الترمذني : حكم المحدث : صحيح

الزمن أثمن شيء يملكه الإنسان :

هذا الزمان الذي تمضيه هو أثمن ما تملك ، فإذا انتهى فلا تملك شيئاً ، أي حينما تجلس على طاولة في الامتحان العام في صف التخرج ، وسيبني على تخرجك آمال عريضة ، إن هذه الساعات الثلاثة هي وقت مصيري ، فإذا أمضيت هذه الساعات في عمل تافه ، في بعض الرسوم التي لا علاقة لها بالسؤال فهذا تضييع للوقت لأن أثمن ما تملك هو الوقت ، وهذا الكلام لكم أيها الإخوة ، إن أثمن شيء تملكونه هو الوقت .

أحد الصالحين كان يمشي في الطريق فرأى مقهى ، ورأى أناساً يقبعون فيه يلعبون الترد ، فقال : يا سبحان الله ! لو أن الوقت يشتري من هؤلاء لاشتريته منهم ، المؤمن يتمنى أن يكون النهار خمسين ساعة حتى يحقق طموحه ، يتمنى أن يتعلم كل شيء ، يتمنى أن يخدم الناس جميعاً ، يتمنى أن يصل إلى كل ليلة قيام الليل ، يتمنى أن يحفظ القرآن غيباً ، يتمنى أن يفهم التفسير فهماً كاملاً ، أي نية المؤمن خير من عمله يحتاج هذا إلى وقت ، فالوقت أيها الإخوة أثمن ما تملكونه .

وأنت بين أيام ثلات ، يوم مضى لا يعود ، ويوم مقبل مغيب عنك ، ويوم تعشه ، مما مضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها ، لك هذه الليلة ، الليلة السابقة ليست لك ، إن كانت في خير أو إن كانت في شر ، إن أطعت الله فيها مضت ، وإن عصيته فيها مضت ، لا تندم على ما فات ، وتقول : غداً لا تملكه ، غيب ، لا تملك إلا اليوم الذي أنت فيه ، لذلك كلما استيقظ الإنسان يخاطبه اليوم يقول : أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود .

### على الإنسان ألا يفوت فرصة عمل صالح :

كلما استيقظ الإنسان صباحاً من فراشه يجب أن يأتي على خاطره ما يلي : لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً آخر في حياتي ، سمح لي ، ما دام قد استيقظ .  
لي صديق ذهب إلى فراشه الساعة الحادية عشرة ، زوجته في الساعة الثانية مست يدها يده ، فإذا هي باردة فانتقضت من الفراش فإذا هو ميت ، فإذا استيقظ الإنسان من فراشه صباحاً يجب أن يأتي عليه هذا الخاطر ، لقد سمح الله لي أن أعيش يوماً آخر ، أضيف إلى عمري هذا اليوم ماذا أفعل به ؟ راقب نفسك كيف تمضي هذا اليوم ؟ كيف يمضي ؟ قد يمضي بأشياء تافهة ، بمشاحلة فارغة ، بخصوصة سخيفة ، بأعمال لا جدوى منها ، بحديث فارغ ،

بغيبة ، بنمية ، بجمع مال ، بتزيين بيت ، بزيارة قريب ، بالحديث عن الدنيا وعن حطامها وعن حاجاتها ، هذا إذا لم يكن هناك معصية ، هذا إذا أمضيت اليوم فيما لا يغضب الله عز وجل فأنت خاسر ، فكيف إذا أمضي اليوم في معصية ؟ كيف إذا ارتكبت فيه معصية ؟ كيف إذا كنت غافلاً ؟ كيف إذا كنت منحرفاً ؟ كيف إذا تجاوزت حدك إلى ما لا يرضي الله عز وجل ؟ والمعجبون من تساوى يوماه ، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان .

هذا الدرس لا ينبغي أن ينتهي مع نهاية الدرس ، يجب أن تبقى هذه المعاني معكم طوال الأسبوع ، هذه شحنة ، أي استيقظت ، ماذا سأفعل اليوم من عمل يرضي الله عز وجل ؟ ماذا سأفعل من عمل أدخله لآخرتي ؟ لما بعد الموت ؟ إذا جاءني ملك الموت فجأة يا رب قدمت هذا العمل ، فعلت هذا العمل ، عدت هذا المريض لوجهك ، عاونت هذا الفقير لوجهك ، جلست في مجلس العلم حتى أتعرف إليك ، قرأت القرآن ، حفظته ، بترت أمري ، خدمت والدي ، أحسنت إلى جيراني ، دعوت إلى الله ، أمرت بالمعروف ، نهيت عن المنكر ، إذا استيقظت من منامك فانتبه أن هذا اليوم يوم جديد أضيف إلى عمرك ولن يعود ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد فتزود مني ، أمسك سيدنا عمر تفاحة فقال : أكلتها ذهبت ، أطعمتها بقيت .

ركبت سيارتك ، رأيت إنساناً يحتاج إلى أن توصله إلى مكان بعيد ، ومعك وقت ، هذه فرصة لعمل صالح ، لا يفوتك هذا العمل ، لك جار مريض عدته ، وجده بحاجة إلى طبيب ، فأتيت له بالطبيب ، وجده بحاجة إلى الدواء ، فأحضرت له الدواء ، هذا عمل تدخره لما بعد الموت :

(( الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ )) .

### العقل من يعمل لما بعد الموت :

معظم الناس يعملون لما قبل الموت ، والمؤمن يعلم لما بعد الموت ، إذا كان عملك لما قبل الموت عظيماً فينتهي بالموت ، مهما كان عملك عظيماً ينتهي بالموت ، مهما تركت من ثروة طائلة تنتهي بالموت .

يا أهلي ! يا ولدي ! لا تلعن بكم الدنيا كما لعبت بي ، جمعت المال مما حلّ وحرم ، فأنفقته في حله وفي غير حله ، فاللهاء لكم ، والتبعية على . فهذا النبي الكريم ما غفل عن

الله لحظة ، ما نامت عينه ، دائم الذكر ، دائم الاتجاه ، دائم الدعاء ، دائم الرجاء ، دائم التوكل ، دائم التقويض ، دائم التسليم ، دائم الصبر ، دائم الشكر ، هذا حال النبي عليه الصلاة والسلام لذلك استحق أن يقسم الله بعمره الثمين .

طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام بلغ سدة المنتهى ، وبلغ المقام المحمود ، وكان أكرم الخلق على الحق ، لا يحتاج إلى اعتراف بهذا المقام هو غني عن هذا ، ولكننا نحن المحتجون ، إذا قلت : إنه أقسم بعمره الثمين إنك لا تضيف شيئاً إليه ، هو هكذا ، هذه مرتبته ، وهذا مقامه ، وقد فاز ونجح وكان سيد الخلق وحبيب الحق وانتهى الأمر ، لن تضيف شيئاً بكل ما تقول ، ولكن الذي يعنيني أنت الذي تعيش ، الذي بين جوانحك قلب ينبض ، أنت المعنى ، كيف تمضي هذا العمر ؟ كيف ؟ أحضر مجالس العلم أم تحضرها شتاء وفي الصيف لك حركاتك وزنهاتك ؟ مجلس العلم أغلى عليك من كل شيء ؟ معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى غال عندك .

### عمر الإنسان إما أنه مليء بالخيرات أو تافه أو مليء بالشر والتجاوزات والطغيان :

أيها الإخوة الأكارم ، هناك عمر تافه ، وهناك عمر مليء بالشر والتجاوزات والطغيان ، وهناك عمر مليء بالخيرات ، عن عبد الله بن بسرٍ أنَّ أَعْرَابِيَاً قالَ :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمْرًا، وَحَسِنَ عَمَلُهُ.

صحيح الترمذى  
الذى أحب أن أقوله لكم الحقيقة مرة دائماً وهناك أسئلة محربة ؛ اسأل نفسك : ما هو عملى الذى ألقى الله عليه ؟ ما هو عملى الذى أدخله لآخر ؟ ما العمل الذى يمكننى أن أعرضه على الله عز وجل ؟ إذا كان مقامى عند الله عز وجل بحجم عملى فما هو عملى ؟ هل تظن أنك إذا حضرت مجلس العلم ولم تكن في مستوىه فقد فعلت شيئاً عظيماً ؟ عن عبد الله بن مسعود : أُوحى الله تعالى إلى نبىٰ من الأنبياء أن قلن لفلان العابد : أَمَّا زُهْدُكَ فِي الدُّنْيَا فَتَعَجَّلْتَ راحَةً نَفْسِكَ، وَأَمَّا افْتِطَاعُكَ إِلَيَّ فَتَعَزَّزْتَ بِي، فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا لِي عَلَيْكَ ؟ قال : يَا ربِّ ! وَمَاذَا لَكَ عَلَيَّ ؟ قال : هَلْ عَادَيْتَ فِي عَدُواً ؟ أَوْ هَلْ وَالَّتَّ فِي وَلِيَا ؟

ضعف الجامع : خلاصة حكم المحدث : ضعيف

ماذا أنفقت من مالك من أجلي ؟ ماذَا أَعْطَيْتَ ؟ هَلْ مَنَعْتَ مِنْ أَجْلِي ؟ هَلْ أَعْطَيْتَ مِنْ أَجْلِي ؟ هَلْ وَادَّتْ مِنْ أَجْلِي ؟ هَلْ عَادَيْتَ مِنْ أَجْلِي ؟ هَلْ أَكْرَمْتَ مِنْ أَجْلِي ؟ هَلْ خَاصَّتْ مِنْ أَجْلِي ؟ مَاذَا فَعَلْتَ مِنْ أَجْلِي ؟

هذا كله مستوحى من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَعْمُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرِتِهِمْ يَعْمَهُونَ . ﴾

## أنواع السكر :

أما معنى سكرتهم فقد قال أحد الشعراء :  
سکران ؛ سکر هوی و سکر مدامہ  
ومتی إفاقتہ من به سکران

\*\*\*

السكر أنواع ؛ بعض أنواع السكر أن يشرب الإنسان الخمر فتسكره ، وبعض أنواع السكر أن يهوى شيئاً فهو سکران في محبته ، هذا سکران بحب الدنيا ، وهذا سکران بحب متاعها ومتاعها ، مباهجها ، شهواتها ، ملذاتها ، حطامها ، أماكن العلو فيها ، هذا سکران يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَنْدَهُنَّ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)

### سورة الحج

الناس أحياناً يسکرون بالعذاب ، لشدة الهول يذهلون عن أنفسهم ، وعن أعز الناس عليهم ، والهوى سکر ، وهؤلاء قوم لوط سکاري بهذه الشهوات المنحرفة ، ﴿ لَعْمُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرِتِهِمْ ﴾ هم الآن سکاري ، الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، هم سکاري الآن ، ﴿ لَعْمُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرِتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : ما خلق الله ، وما ذرا ، وما برأ نفسه أكرم على الله عز وجل من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره . أما سكرتهم فقد قال بعض المفسرين : ضلالهم ، لعمرك إنهم لفي ضلالهم يعمهون أي يلعبون ، هم في ضلال ويلعبون . وبعضهم قال : سكرتهم أي حيرتهم ، ويعمهون يتربدون ، إنهم لفي حيرتهم يتربدون .

وبعضهم قال : سكرتهم شهوتهم المنحطة ، هم سکاري بها ، وقد تلقى بإنسان سکران بشهوة ما ، غائب عن كل شيء ، لا يرى سواها ، لا يتحدث إلا عنها ، لا يعنيه إلا

أخبارها ، لذلك الشهوات إذا استحوذت على القلوب حجبتها عن علام الغيوب ، والله سبحانه وتعالى يقول :

وَمَا يَسْنُدُ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ (22)

سورة فاطر

وبعضهم فسر هذه الآية بأن هذه القبور هي قبور الشهوات ، والإنسان قد يدفن في الحياة الدنيا في قبر شهوته ، فإذا هو أعمى .

صُمْ بُكْمْ عُمِّيْ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)

سورة البقرة

أعمى ، أصم ، أبكم ، إنه مدفون في قبر الشهوة ، هذا بالنساء ، وهذا بالمال ، وهذا بالعلو في الأرض ، وهذا بمحاباة الدنيا ، وهذا بمعندها الرخيصة ، وهذا بدرهمها ودينارها ، وهذا بمركباتها ، وهذا بقصورها ، وهذا بأسواقها .

### توجيهات للقسم الإلهي في القرآن الكريم :

شيء آخر ؛ هذا يقودنا إلى موضوع القسم ، الله سبحانه وتعالى أقسام بعمر النبي ، بعض العلماء فهم هذا القسم فهماً دقيقاً فقال : ما من شيء أقسم الله به أي إذا أقسم الله عزوجل بعمر النبي صلى الله عليه وسلم فهل أقسم الله بشيء أعظم منه ؟ لا ، الإنسان حينما يقسم يقول : والله العظيم ، الإنسان إذا أقسم يقسم بشيء أعظم منه ، لكن الله إذا أقسم له معنى آخر .

قال بعض العلماء : ما من شيء أقسم الله به إلا ليدل على فضله على ما يدخل في عداده ، أي من يدخل في عداد المصطفى ؟ البشر كلهم لأنهم بشر ومن في عداده البشر ، فإذا أقسم بحياته فليدل بقسمه هذا على أن هذا الإنسان متميز على سائر البشر ، فإذا قال :

وَالثَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ (1)

سورة التين

على هذا المعنى هناك أشجار كثيرة ، لكن التين والزيتون يقعان في المقدمة ، أشجار معمرة ، وتؤدي غایيات كثيرة ، ولها منافع جمة ، في السماء نجوم كثيرة ، قال :

وَالشَّمْسِ وَضَحاها (1)

سورة الشمس

وأقرب النجوم لنا الشمس ، فإذا أقسم الله بشيء فليدل على أنه أفضل مما يدخل في عدده ، هذا بعض توجيهات الأقسام الإلهية .

وبعضهم قال : إذا أقسم الله بالشمس فهو يقول : رب الشمس ، رب القمر ، رب السماء ، رب محمد ، رب هذا العمر الثمين ، إما أن توجه القسم بإضافة كلمة و ( رب ) وإما أن القسم يفيد أن هذا الشيء الذي أقسم الله به يفوق كل ما دخل في عدده ، وإما أن يقسم الله عز وجل بشيء هو بالنسبة إلينا عظيم ، لكن إذا قيس بالله عز وجل لا شيء ، بالنسبة إلينا يقسم ، بالنسبة إليه لا يقسم ، يقول :

**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبَصِّرُونَ (38) وَمَا لَا تُبَصِّرُونَ (39)**

سورة الحاقة

الكون كله دخل فيه .

**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)**

سورة الواقعة

فهذا توجيه ثالث ، إذا أقسم بشيء فهذا الشيء بالنسبة إلينا ، وإذا لم يقسم بشيء فهذا الشيء بالنسبة إليه ، وإذا أقسم فليدل أن كل ما دخل في عدده دونه ، أو لك أن تضيف مع الأقسام الإلهية كلمة و ( رب الشمس والقمر ) ، و ( رب الفجر وليل عشر ) هذه ثلاثة توجيهات للقسم الإلهي في القرآن الكريم .

### الاقتداء بالنبي الكريم في عمل الصالحات وطاعة الله عز وجل :

على كلٍ ما من شك في أن جميع العلماء اتفقوا على أن المقصود بهذا القسم هو عمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا تشريف وتعظيم لعمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأكيد أن أيها الإنسان اقتد بهذا النبي العدنان ، أمض عمرك بهذه الطريقة ، ونظر إلى الماضي فرأى أن هذه السنوات أمضاها في طاعة الله ، وفي عمل الصالحات ، وفي تعلم العلم ، وفي نشر العلم ، والله الذي لا إله إلا هو يغمر قلبه سعادة ما بعدها سعادة ، إذا شعرت أنك قد أمضيت هذا العمر في طاعة الله ، لذلك عن أبي برزة الإسلامي نصلة بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

لَا ترْزُولُ قَدْمًا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسَأَّلَ عَنْ أَربعٍ : عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عَلَمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جَسَمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟

صحيح الترغيب: حسن صحيح

المؤمن مستعد للقاء ربِّه دائمًا :

﴿ لَعَمِرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرِتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذْنَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ صيحة واحدة ، ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ أي وقت شروق الشمس أي الإنسان لا يدرى متى يأتي الأجل ، يأتي صباحاً ، حالة الوفاة غريبة ، يوجد حالات الساعة الثانية ليلاً ، الواحدة إلا خمس دقائق ، السابعة والنصف مساء ، العصر ، الظهر ، مع شروق الشمس ، مع طلوع الفجر ، فالإنسان يستعد كراكب القطار ، قد يأتي موظف ، ويمسك بيده ، ويقول له : انزل ، هكذا جاء الأمر ، الآن انزل ، فالراكب الذي يستعد ، يهوى أمتنته ، يجهز حاجاته وهو ينتظر هذه اللحظة ، فإذا قيل له : تفضل ، يقول : أنا جاهز ، هكذا المؤمن ، تائب من كل الذنب ، راض الله عن وجه ، عمله مستقيم ، عمله طيب ، قائم بعبادته ، يتعلم العلم ، ينشر العلم ، فإذا جاء ملك الموت يقول : مرحباً بلقاء الله ، واكربتاه يا أبت ، قال : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، غالباً نلقى الأحبة محمداً وصحابه ، والذي لا إله إلا الله يأتي على قلب المؤمن ساعة عند الموت لا تسعه الدنيا وما فيها من شدة الفرح ، أهله يكون ، يندبون حظهم ، يمزقون ثيابهم ، وهو في روضات الجنات .

قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْثَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27)

سورة يس

قدرة الله عز وجل في تدمير الظالم :

﴿ لَعَمِرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرِتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72) فَأَخَذْنَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (73) فَجَعَلْنَا عَالَيْهَا سَافِهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ ﴾ هذه جعلنا عاليها سافها نعرفها ، هذا الشيء نعرفه ، كم من زلزال أحال مدينة في أوج ازدهارها وأوج نشاطها وأوج تألقها إلى أكواخ من

الأنقاض ، أغادير في ثلاثة دقائق أصبحت قاعاً صفصفاً ، فيها فندق من ثلاثة طابقاً خاص كله في الأرض ، وبقي الطابق الأخير مع اسم الفندق على مستوى الأرض ﴿فَجَعَلْنَا عَالَيْهَا سَافِلَهَا﴾ الآن نسمع ، ونشاهد عن زلزال دمرت المدن بدقائق محدودة .

### معاني كلمة سجيل :

﴿فَجَعَلْنَا عَالَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ﴾ لهذه الكلمة معنيان ؛  
المعنى الأول أن السجيل هو الطين اليابس .  
والمعنى الآخر أن السجيل من السجل ، أي حجر سجل عليه اسم صاحبه ، بمعنى أنه في ملكوت السموات والأرض ليس هناك شظية طائشة ، شيء طائش لا يوجد عند الله عز وجل ، فكل حجر عليه اسم الذي يستحقه من سجيل ، لذلك عن أبي الدرزاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ ، وَمَا يَلْغَى عَنْهُ حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَغْمَمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئُهُ ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبُهُ .

أحمد : الهيثمي : مجمع الزوائد : رجاله ثقات

### تعريف بالمتوسمين :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ من هم المتوسمون ؟ روى الحكيم الترمذى في نوادر الأصول من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تفضل علينا النبي صلى الله عليه وسلم ، وفسر هو نفسه هذه الكلمة فقال لما سئل عن المتوسمين قال : المتقرسين - قال أبو عيسى : وقد روي عن بعض أهل العلم في تفسير هذه الآية : «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» قال : للمتقرسين - الذي يفترس الحقيقة ، يتعرف إليها ، ومن ملامح العقلاء ، وأصحاب العقول ، أصحاب الألباب أنه يكشف الحقيقة «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ» للمتقربين ، وبعضهم قال : للاظنين . وبعضهم قال : للمتبصرين .  
من عالمة العاقل يتبصر ، يفكر ، يدقق ، يتحقق ، يتريث قبل أن يقبل ، قبل أن يتهافت ، قبل أن يلقي نفسه في جحيم هذه الشهوة وفي أتونها ، ينتظر هل ترضى الله ؟ هل

عملي صحيح؟ ينطبق على الشرع؟ هل فيه مخالفة؟ هل توعد الله من فعل هذا بعذاب أليم؟  
قبل أن تأكل الريا قرأت قوله تعالى :

فَإِنْ لَمْ تَفْعُلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْثِنُ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تُظْلِمُونَ وَلَا تُظْلِمُونَ

(279)

سورة البقرة

قرأت هذه الآية؟ العاقل هو الذي يقف ، سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله ، لا يتسرع ، قبل أن توقع هذا العقد مع شريك هل تعلم أن في هذه البضاعة مادة حرام يحرمها الشرع؟ قبل أن تأخذ هذا المبلغ هل علمت أن هذا المبلغ قد يكون حراماً؟ قبل أن تطلق هذه الزوجة هل أنت متأكد أن هذا الطلاق يرضي الله عز وجل أم أن فيه سخط الله عز وجل؟ قبل أن تشترى ، قبل أن تتبع ، قبل أن تتزوج هل اخترت المرأة الصالحة؟ من تتزوج المرأة لجمالها أذله الله ، من تزوجها لمالها أفقره الله ، من تزوجها لحسبها زاده الله دناءة ، قبل الزواج ، قبل الشراء ، قبل البيع ، قبل أن تسجل اسمك بهذه الرحلة في الصيف إلى بلغاريا هل تعرف ما في هذه الرحلة من معاصر؟ من انحرافات؟ من موبقات؟ هل أنت تملك نفسك في هذه الأماكن؟ قبل أن توافق كن متوسماً ، توسم الحقيقة قبل أن تصلها ، العاقل هو الذي يصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه ، يصل إليه بفكره قبل أن يصل إليه بجسمه ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَتَوْسِمِينَ ﴾ .. قال بعضهم : المتoscum هو الناظر إليك من فرقك إلى قدمك ، هذا متoscum ، يتغرس ، المؤمن كذلك يتغرس ، إنسان يكلم كلاماً قد يكون مغرضًا ، قد يكون له نية سيئة ، قد يكون يحاول خداعك ، كن متوسماً .

دخل رجل إلى مجلس سيدنا عثمان رضي الله عنه فقال : أو يدخل أحدكم إلى المجلس وعليه آثار الزنا؟ فقالوا : يا خليفة رسول الله أوحى بعد رسول الله؟ قال : لا ، ولكنها فراسة صادقة .

والتوسم كما قال العلماء : التثبت والتفكير ، لذلك ورد في الأثر أن الحزم سوء الظن ، وسوء الظن عصمة ، واحترس من الناس بسوء الظن ، وكان عليه الصلاة والسلام يحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوي بشره عن أحد ، بشره للجميع ، ولكن يحذر أحياناً .

شروط التوسم والفراسة :

العلماء قالوا : التوسم يحتاج إلى شروط ؛ إلى جودة القرية ، وحدة الخاطر ، وصفاء الفكر ، وتقرير القلب من حشو الدنيا - هذا الغارق بالشهوات قلبه أعمى - وتطهير النفس من أدناس المعاصي ، وقدرات الأخلاق الذميمة ، وفضول الدنيا ، هذا المتوسم إنسان قلبه شفاف ، فارغ من حب الدنيا ، فارغ من شهواتها ، فارغ من حطامها ، من مشاغلها ، من همومها ، المتوسم إنسان حاد الفكر ، حاد الخاطر ، صافي النفس ، بعيد عن المعاصي ، مطهر عن الدنس ، إذا كنت كذلك يؤتيك الله هذه الفراسة الصادقة .

وقال بعضهم : التوسم هو الاستدلال بالعلامات ، إما علامات ظاهرة ، أو علامات باطنية .

وبعضهم عَدَ التوسم إدراكاً دقيقاً جداً عن طريق استدلال دقيق ، سيدنا الصديق رضي الله عنه حينما نزلت هذه الآية صار يبكي ، ماذا في هذه الآية ؟ قال تعالى :

**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبَّخَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفَرَةً إِلَّهُ كَانَ تَوَابًا (٣)**

سورة النصر

صار يبكي ، البكاء ليس له معنى ، ﴿ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) ﴾ وتبكي ؟ عرف أن في هذه الآية نعياناً للنبي صلى الله عليه وسلم ، انتهت رسالته ، حقق الهدف ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن ابن عباس قال : لما نزلت {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} دعا رسول الله فاطمة فقال : إِنَّه قد ثُعِيتَ إِلَيَّ نَفْسِي فبَكَثُ ، فقال : لا تبكي فإنك لأول أهلي لاحق بي فضحك فرأها بعض أزواج النبي فقالت لها رأيناك بكثرة ثم ضحك فقالت : إنَّه قال لي ثُعِيتَ إِلَيَّ نَفْسِي بكثير ، فقال : لا تبكي فإنه لأول أهلي لاحق بي فضحك .

الطبراني : المعجم الأوسط : خلاصة حكم المحدث : لم يرو هذا الحديث عن عكرمة إلا هلال هذا إدراك عميق جداً .

آثار قوم لوط تدل على مجدهم وحضارتهم ثم تدمير الله لهم :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا - آثار هؤلاء القوم قوم لوط - لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ .. في الطريق ، في طريق العرب من مكة إلى بلاد الشام ديار لوط على طريقهم ،

وكيف جعل الله عاليها سافلها ، وإن هذه الآثار تنطق بظلم هؤلاء ، تنطق بما فعلوا ، ﴿ وَإِنَّهَا - الآثار - لَبِسَابِلٍ - السبيل هو الطريق - مُقِيمٌ ۝ .. كما أن أهرامات الفراعنة إنها شواهد على حضارتهم ، وعلى مجدهم ، وكيف دمروا ، وأهلكهم الله عز وجل .

### أصحاب الأئكة وأصحاب الحجر أهلكهم الله فكانوا عبرة لكل البشر :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (77) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَئِكَةِ لَظَالِمِينَ ۝ .. أصحاب الأئكة أصحاب البساتين ، والأئكة هي الشجرة العظيمة ملتفة بالأغصان ، ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَئِكَةِ لَظَالِمِينَ ۝ .. هم قوم سيدنا شعيب ، ﴿ فَأَتَقْرَبَنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَوْمٍ مُّبِينٍ ۝ .. أي آثار قوم لوط ، وآثار قوم شعيب أمام المسافرين جيئهً وذهاباً على طريق مكة الشام .

﴿ وَإِنَّهُمَا لِيَوْمٍ مُّبِينٍ (79) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ۝ وأصحاب الحجر بعضهم قال : الذين نحتوا بيوتهم من الصخر ، هؤلاء الأنباط إذا زرت مدinetهم ، ولا تزال قائمة حتى الآن ، إنها مدينة رائعة ، بيotta محفورة في الصخر ، بيت ، غرف ، نوافذ ، أماكن للتهوية ، متينة صخر ، جبل ، حماماتهم ، أماكن لهم ، مسارحهم ، بيوت أمرائهم ، مياههم ، قنواتهم ، أنا رأيتها بأم عيني ، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُغَرِّضِينَ ۝ أحياناً صدفة أثناء تقليب الإذاعات يسمع الذي يدير هذا الجهاز القرآن الكريم ، سريعاً ما يزيح عنه ، لا يريد أن يسمع القرآن ، يريد الغناء ، لو أنه نصحه لتناءب أماماك ، فإذا حدثه عن الدرهم والدينار ، وعن هذا المشروع وذاك المشروع ، وعن هذه الرحلة وتلك الرحلة تراه أدناً مصغية ، إذا قبض المال كان يقظاً ، فإذا استمع إلى مجلس علم تأخذه سنة من النوم ، هل رأيت بربك في حياتك كلها إنساناً يقبض الآلاف وهو نائم ! لا ينام ، في كامل الصحة ، كامل النشاط ، كامل اليقظة ، في يقظة تامة ، فربنا عز وجل قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (80) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُغَرِّضِينَ ۝ .. جعلوها وراء ظهورهم ، لم يلتفتوا إليها ، هذا الموضوع لا يعنيها ، هذا الموضوع عفا عنه الدهر ، يقول لك : حدثا عن الدرهم والدينار ، حدثا عن الشهوات ، حدثا عن بعض الأفلام ، حدثا عن شيء نتوق إليه ، هذا شيء لا يعنيانا الآن ، ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُغَرِّضِينَ (81) وَكَانُوا يَتْحَوَّنَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝ ظنوا أنهم بهذه الطريقة يأمنون من جائحات الزمان ، أو يأمنون من الموت ، أو أن هذه المدينة محسنة ، إن الطريق إليها مر إجباري بين جبلين لا يتسع إلا لفرس أو فرسين

فقط ، إذاً أي عدو سوف يصل إليهم سيحصرون به هذه الطريقة ، ﴿ وَكَانُوا يَتْحِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْبِحِينَ ﴾ .. أخذتهم الصيحة فدمروا عن آخرهم ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .. هذه المدينة ، وهذه البيوت ، وهذه الحمامات ، وهذه المسارح ، وهذه القنوات ، وهذه المحاكم ، حتى إن البيت الكبير الذي هو لمن يدير شؤونهم ، ثلاثة متراً في ثلاثة متراً في ثلاثة متراً ، ثلاثة متراً عمقاً ، وثلاثة متراً عرضاً ، وثلاثة متراً ارتفاعاً ، نحت من الصخر في لب الجبل ، وعلى مدخل هذا القصر الأعمدة والتيجان والأقواس ، شيء لا يصدق ، ﴿ وَكَانُوا يَتْحِثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْبِحِينَ (83) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والآن لو أن الإنسان أشاد هذا البناء ، قال لك : أخي أنا اعتدت بالكسوة عناء باللغة ، انتقى أحسن أنواع البلاط ، أحسن أنواع الطلاء ، أحسن أنواع الموسير ، أحسن أنواع البياض ، انتقى أحسن أنواع الفرش والأثاث والأجهزة ، فإذا جاء ملك الموت يدعه كما هو ، ويأخذونه إلى المثلث الأخير ، والله الذي لا إله إلا هو لو تبصر الناس بما كتب على النعوات لارتعدت فرائصهم ، اقرأ النعوة : وسيشيع فلان إلى مثواه الأخير ، إذاً هذا البيت الذي يسكنه ماذا يسمى ؟ استنتاجاً مثوى مؤقتاً ، بيته مؤقتاً ، اعني به ما شئت إنه مؤقت ، سنوات معدودة .

أعرف رجلاً مضى عليه وهو يكسو بيته سنتان بالتمام والكمال لشدة وسوسته ، وشدة حرصه على أن يكون هذا البيت مثلاً أعلى في الأنوثة والذوق ، بعد أن سكنه بشهر واحد توفيت زوجته ، وبعد ستة أشهر توفي هو ، إذاً عمل سنتين ، لم يسكن فيه إلا سبعة أشهر بالضبط ، فلذلك : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ابن بيته في الآخرة ، ادفع من مالك في سبيل الله ، ادفع من مالك للقراء والمساكين ، أحسن إلى الخلق يحبك رب العالمين ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيهِ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ..  
والحمد لله رب العالمين